﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

مِفْتَاحُ العُبُودِيَّة

مِفْتَاحُ العُبُودِيَّة

هـو مِفتاحُ حقيقةِ وجودِك في الحيـاة، فلا ولن تصلُح القلوبَ ولا ولن تسـتقيم الجوارح بشـيءٍ مثل معرفة الله بأسـمائه وصفاته، تُـرى ماذا أثمرتْ تلك المعرفة بالإله العظيم في قلبِ العبد المؤمن بعـد مـا قرأ ما سـبق مِـن آيـاتِ الوصـف والثناء علـى رب الأرض والسَّماء؟

لقـد أثمرتْ حُبًّا لله إذ هـو ربُّ العالمين، ورجاءً في رحمتِه إذ هو الرحمنُ الرحيم، وخوفًا منه وافتقارًا إليه إذ هو مالكُ يوم الدِّين.

فلمَّا أثمرت الآياتُ الكريمة هذه المعاني الجليلة في قلب العبد المؤمن؛ فكأنَّه اقتربَ مِن ربِّه وشَعَـرَ بحضور قلبِه بين يديه، فانتقل الحديـث مِن الغيْبة إلى الحضور بكاف الخطاب ﴿ إِيَّاكَ ﴾[1] وفي هـذا القرب وتلك المعرفة أصبـح العبد خاضعًا لربِّـه مُحبًّا لمولاه

(١) ابن كثير بتصرف يسير.

راجيًا لرضاه يبحث عن مراضِيه جلَّ في عُلاه فلم يجد إلَّا ما خَلَقَه ربُّه مِن أجلِه، وهي العبُوديَّة أو العبادة فيلهَجُ قلبُه وينطقُ لِسَانُه بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ لأنَّ اللهَ خلقَه مِن أجل ذلك فقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إنَّها آيةُ الآيات، وأمُّ الْمُحْكَمَاتِ، وبَيِّنَةُ البَيِّنَاتِ، ومجمعُ الدَّلالات لكلِّ آيات الوظيفة الإنسانية في كتاب الله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إنها مِفتاحُ الفَهَم الحقيقيِّ لطبيعة الوجود البشريِّ كلِّه! وبابُ الدخول إلى فَلَكِ الوظيفة الإنسانيَّة الكبرى، المنتظمُ في مدارات الكون الفسيح، والضاربُ على هُدى الخالق العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

آيةٌ جامعةٌ مانعة! تُلخصُ قصةَ الخليقة الإنسانيَّة كُلها، مِن أوَّلها إلى آخرها، وجودًا ووظيفةً وغايةً، فلا استقامة على العبادة - ابتداءً - إلا بالاستعانة بالله، ولا ثبات على العبادة - انتهاءً - إلا بالاستعانة بالله، ولا بلوغ إلى رغائب الدين والدُّنيا جميعها، مِن أمور العادات والعبادات، وصلاح المَعاش والمَعاد، إلا بالاستعانة بالله! ولا انطلاق ولا وصول إلا بالاستعانة بالله، وبالله وحدَه دون سواه! ذلك إقرارٌ بعهد، والتزامٌ بميثاق، وشهادةٌ على النَّفس[1].

---

(١) فريد الأنصاري.

يغيب عن كثير مِن الطيِّبين الراغبين في الأجر العظيم والفضل الكبير؛ المعنى الصحيح للعبوديَّة الواجبة عليهم، ولذا فهُم يمارسون جزءًا مِن العبادة حسب فهمِهم ويتركون جزءًا مُهمًّا، وهنا كان لِزامًا أن نقف مع المفهوم الواسع الشامل الصحيح للعبوديَّة، فأقول مِن المعلوم أنَّ العبوديَّة نوعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّةُ ما يشترك فيه المسلمون مما شُرِعَ لجميعهم مِن صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وذكرٍ ونوافل...إلخ.

أما العبوديَّة الخاصَّة فيقول عنها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين:

«**ولله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كلِّ أحدٍ عبوديَّة بحسب مرتَبتِه سِوى العبوديَّة العامَّة التي سوَّى بين عبَادِه فيها**».

وهي عبارةٌ دقيقةٌ جامعة، تُضيف أُفقًا في الفهَم والعمل والإصلاح في الحياة وتحتاج إلى بيانٍ وتوضيح، فإذا اشترك النَّاسُ في الواجبات والأحكام العامة بحُكم كوْنهِم مسلمين فقد خصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل أحد مِن الخلق بحالةٍ مِن العطاء والمِنَح والمسئوليات تفرضُ عليه القيام بواجبات سمَّاها ابن القيم **(العبُودِيَّة الخاصَّة)** وهذه العبُودِيَّة ذو معانٍ مُغرِقَة فصَّلها فضيلة د. الشيخ عبدالرحمن الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على النحو الآتي:

◇ أنَّ العبـادة هي كمالُ الطَّاعـةِ والانقيادِ لأوامرِ الله والانتهاءِ عـن زواجِره، والوقوفِ عند حدودِه، وقبولِ جميع ما ورد عنه على لسان نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دونَ ردِّ شيءٍ مِن ذلك أو إلحادٍ فيه.

◇ أنَّ التذلُّلَ والخشـوع في العبُوديَّة ناشـئٌ عن حُبٍّ وتعظيم، فمَن خضع لأحدٍ مع بُغضِه له لا يكون عابدًا له، ومَن أحبَّه ولم يخضع له بالقبولِ والانقيادِ لم يكن عابدًا له أيضًا، كمحبَّة الإنسـان لوالده، إذ لا بُـدَّ أن يقترنَ الحُبُّ بالتعظيم ليحصل الخضوع والانقياد، فلو حصلا بسـبب الخوف والإرهاب لا يكون عبـادة، ومِن هنا وجبتْ محبَّةُ اللهِ ورسولهِ وتعظيمها وتقديم محبتهما على كلِّ شيء.

◇ جميع أنواع العبادة مِن خوفٍ ودُعاءٍ وخشيةٍ ورجاءٍ واستعانةٍ واستعاذةٍ؛ لا يجوز شيء منها لغير الله وهو مُصادمٌ لمقصودِ الله في حصـره ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما أنَّه شِـركٌ مُخِلٌ بمدلول الشهادتَيْن.

◇ إقامـةُ الحـدود والحكم بمـا أنزل اللـه مِن لـوازم عبوديَّتِه سـبحانه، وهما مِن صميم العقيدة؛ لأنَّ مَن عطَّل حدودَ الله، أو لم يحكم بشريعته فقد ابتغى غير الله حَكَمًا، فإنِ ادَّعى عدم صلاحيتها للعصـر، فإنَّه طاغوت تجب مُنابذتُه حتى تكون عبوديَّة اللهِ مُرتكِزةٌ على أصلٍ صحيح.

◇ لُـبُّ العبوديَّةِ الحـبُّ في الله، والبُغضُ فـي الله، والموالاةُ في اللـه والمُعَـاداةُ فيه، فلا تجوز محبَّة شـخصٍ إلَّا فـي ذاتِ الله، ولأنَّه طائعٌ للَّه ورسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◇ رُوُحُ العبوديَّـةِ التواصـي بالحـق والتواصـي بالصبر، ومِن مُقتضياتِهمـا الأمـر بالمعـروف، والنهي عن المنكـر، وقمع الظالِم المُفتـري، فمَن تخلَّى عن ذلك ولم يفعل قدر المُسـتطاع فقد أخلَّ بعبوديَّة ربِّ العالمين.

◇ عبُوديَّـةُ اللـه المَرضيَّـة تقتضـي حُسـن المعاملـةِ للخالـق والمخلوق، فيعاملُ الله ويراقِبُه حقَّ المراقبةِ كأنَّه يراه؛ ليرقَى بذلك إلى درجة الإحسان، وينال حظَّ المُحسنين، ويُحسِنُ معاملةَ الخلقِ أيضًا، بما يُحب أن يعاملوه به ليحقق الإيمان، ويكون أسوة صالحة مؤثـرة في دعوته، نافعًا لأُمَّته، ويكـون كل فرد منها مواطنًا صالحًا، فيتحقَّق لها الوِئام والكرامة.

◇ مِـن لـوازمِ العبوديَّـة الحَقَّة ألَّا يتقَّدم المسـلمُ بين يدي الله ورسـوله بأي تشـريعٍ يخالـفُ الكتاب والسُّـنة، مهمـا كان وحيث كان، ولا يقبـلُ ذلـك مِن أحدٍ ولا يُقرُّ أحدًا عليه، بل يُنكِرُه بحسـب اسـتطاعته ويتقرَّبُ إلى اللـه ببُغْضِ صاحبه وتكريـس جهوده للرَّد عليه ومعارضته بشـتى الطرق والأسـاليب، نُصرةً لله ورسوله دون

مُبالاةٍ بالدُّنيا وزينتِها، فإنَّ مِن الإيمان الفِرار بالدِّين مِن الفتن.

◇ مِن كمال العبوديَّة أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إلى العبد ممَّا سِواهُما، فلا يُفضِّلُ على طاعةِ الله وابتغاء مرضاته أولادًا ولا أبًا ولا أُمًّا ولا إخوانًا ولا أزواجًا ولا عشيرةً ولا موطنًا ولا مالًا ولا سكنًا ولا ضيْعةً، فتفضيلُ شيءٍ مِن ذلك على مرضاةِ الله ومحبَّتِه والجهادِ في سبيله؛ مُخلٌّ بالعبُوديَّة وسالبٌ الإيمانَ أو مُضعِفٌ له.

◇ عبوديَّةُ اللهِ تُوجِبُ على صاحبِها الصدقَ في القولِ والعملِ، بحيثُ لا يخالفُ النَّاسَ إلى ما ينهاهم عنه أو يأمُرُهم بما هو مُنسلِخٌ منه، فيكون أُضحُوكةً ومثلًا سيئًا لعدوه وصديقه.

◇ القيام بحقِّ العبوديَّةِ يُوجِبُ العملَ المتواصلَ بكُلِّ جِدٍّ ونشاطٍ على تحقيقِ الوَحدَة الإنسانيَّة جمعاء تحت إطار الدَّين، إذ بتحقيقِ العبوديَّة لا تنشأ العصبيات والقوميات المُفرِّقة بين الأجناس والأقاليم، ولا الحدود المُصطنعة، لأنَّ كلمةَ التوحيد المُستكمِلة لمعانيها يجبُ أن تشملَ جميع الأرض ولا يعلوها أحدٌ ولا تعترف بحدود ولا تجزئة، فلا تُحقِّق أمَّةُ القرآنِ معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حتى يعملوا العمل المتواصل لتكون كلمة الله هي العليا في سائر المعمورة، لا يحول بينها حدود ولا سدود، فأهلُ القرآنِ هم المسئولون عن التقصير في

ذلك، إذ لو ألهَبوا حماس الشعوب بواجبهم الديني ودفعوهم إلى الاستعداد بكل قوَّةٍ وتسخير كل شيء فيها؛ لما استطاع أن يصدَّهم عن ذلك شيء.

◇ عبوديَّةُ الله تُوجِبُ على صاحبِها الاستجابة لجميع نداءاتِ الله في كتابِه العزيز، على اختلافِ أنواعِها وأساليبِها دون إهمال شيءٍ منها أو التراخي فيه، وهي تقرُبُ مِن مائةٍ وثلاثةٍ وعشرينَ نداءً، بعضُها بـ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾، وبعضُها ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ وبعضُها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فمَن لم يستجِبْ لكلِّ نداءٍ يُناديه به ربُّه فليس مُحققًا للعبوديَّة المطلوبة في هذه الآية، وكيف يكون عابدًا لله مَن لا يستجيب له وهو يدعوه لِمَا يُحييه حياةً طيبةً في الدُّنيا، ويُنجِّيه في الآخرة مِن العذاب الأليم، لا شك أن مَن لم يستجِبْ لنداءاتِ ربِّه عاصٍ له مُناقض في سيرته لجميع مدلول سورة الفاتحة مِن: حُبِّه، وتعظيم أسمائه، والتعلُّق به، والقيام بشكره وحمده، والإيمان ببعثه وحسابه، ورجاء رحمته، والخوف مِن عذابه، والقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، فأصبح غير مُحقِّقٍ لعبوديَّتِه المطلوبة فيها، وهذه أكبرُ بليَّةٍ المسلمين أنَّهم انصاعوا لنداءِ مَن يُهلكُهم كالشَّاءِ تنصاعُ للجزَّار.

◇ العابدُ لله حقًا يكون مُعظِّمًا لشعائرِ دينه، مُقدِّسًا لأحكامِه وتعاليمِه، لا يصرِفُه عنها أو يُنفِّره منها عبث العابثين مِن حُكماء وعُلماء يتلاعبون بالنصوص أو يتهاونون في تطبيقِها، فيُحمِّل الدين آثامهم، والدين موتور بهم كما وترت بهم شعوب الأرض.

◇ عبوديَّةُ اللهِ تُوجِبُ على أهلها ألَّا يعيشوا بإيمانٍ أعزل أمامَ إلحادٍ مُسلَّح، بل يسعوْن غاية السعي بكل مجهود؛ ليكونوا أقوياء مُسلَّحين بجميع أنواع الأسلحةِ الأدبيَّة والماديَّة والمعنويَّة؛ ذوي خبرةٍ بفنون الحرب الباردةِ والكاوية؛ ليدفعوا الإلحاد في أي ثوبٍ ظهر، ويقمَعوا أهلَه باللسانِ والسِّنان، ويكسِروا أسلحتَهم ويفضَحوا فريقَهم، وإذا برَدَ سِلاحُهم لسببٍ مِن الأسباب وجَبَ ألَّا تبرَدَ ألسِنتُهُم ولا تجِفَّ أقلامُهُم، وإلَّا لم يُحققوا عبوديَّةَ اللهِ المُنجية لهم مِن خِزي الدُّنيا وعذابِ الآخرة، وسقطوا وانهزموا أمام كل مُبطل.

◇ في حصر الضَّراعة الصادقة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تخليص للنفس مِن عبادة آلهةٍ شتَّى، وتحرير لها مِن رِق الهوى والشهوات وارتفاع بها مِن الأنانيَّةِ والانتهازيَّةِ إلى شرف الصدق والإخلاص، المكوِّن للإنسانية الحقَّة، وإذا حصر العبدُ اتجاهَه إلى الله في سائر نواحي حياته وجميع أموره فقد خلَّصَ

نفسَه مِن كل رقٍّ وأسر، وكان قلبُه خاليًا مما سِوى الله ومُنشغلًا بحبِّ الله ورسولِه وتعظيمِهما، فلا يكون لشياطين الجن والإنس عليه سبيل، فيتحرك حيث أمره الله مُستجيبًا لله لا يحركه أحد مِن شياطين الإنس، ولا يستجيب لأحدٍ مِن طواغيت البشر المُضلِّلين، الذين يلعبون على العواطف بشتى أنواع الدجَل والتلبيس، ويُوجّهون النَّاس إلى ضروبٍ مِن الجاهلية الجديدة، باسم القوميَّة الفُلانية تارة، والمذهب المادي الفلاني تارة، والحركة الثوريَّة تارة، والمبدأ الفلاني تارة، وغيرها مما زادت به فتنتهم، وفي كل مجتمع لا يُحقِّق أهلُه القيام بمدلول هذه الآية التي هي محض معنى (**لا إله إلا الله**).

◇ فلا نجاة اليوم مِن همزات شياطين الإنس وطواغيتهم إلا بتحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ بجميع معانيها ومبانيها، لأن المحقق لـ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، لا يغلبه أحُد بإذن الله، فالذي يريدُ أو يعملُ على إقصاءِ الإسلام وعزل القرآن عن الحُكم ليس عابدًا لله ولا مستعينًا به وفق هذه الآية، بل هو مُعين على نفسه أعداء الإسلام الذين هم أعداؤه، فيكون خادمًا لأغراضهم المُضادة للوحي مِن حيثُ يشعر أو لا يشعر.

◇ عبوديَّةُ الله تقتضي التأسِّي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلِّ شيءٍ وفي كل ناحيةٍ مِن نواحي الحياة، وأن يتَّبِعَ المسلمُ سُنَنَه، ولا يتعلَّل بقَصر العمل والحجَّة على القرآن وحدَه، فإنَّ هذا عملُ الزنادقةِ الذين يُريدون مسخَ الإسلام، والإطاحة بشطره الثاني **(السُّنَّة)**.

◇ الابتهال إلى اللَّه بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يجب أن يكون صادرًا عن محبَّةٍ صادقةٍ لله، الذي يجب أن يكون أعلى وأغلى محبوب، وذلك بداعي الفطرة والشرع والعقل الصحيح، فإذا صدر ذلك عن محبَّةٍ صادقةٍ حصل مفعوله الذي لا يقاومه شيءٌ في الدُّنيا مهما كان ذلك.

◇ يتضح في حصر الابتهال إلى الله بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تحقيق لتوحيد الألوهية بجميع معانيه، والقيام بواجب العبوديَّة مِن جميع صنوف العبادات التي تنْتَزِعُ النَّفسَ مِن التعلُّق بماديَّات الحياة، وتوجِّهُهَا إلى خالقِهَا وفاطِرِهَا، لتستمدَّ منه النُّور، وتستعين به على تسخير الماديَّات مِن أجل نُصرة دينه، وعلى الوجه الذي يُرضِي الله.

◇ الابتهال إلى الله بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يستلزم مِن صاحبه تجديد حياته كل ساعة بمراقبة الله وخشيته والرجوع

إليه بالتوبة والاستغفار، والتزام حكمه في كلِّ شيء، لِئلَّا يتعثَّر في سيْره، أو يستمر على تعثُّرِه بدوام مَيْله مع الشهوات واقترافه للدَنايا بسبب إثرته التي لا ينجيه منها إلا تصديق ذلك الابتهال بالعمل، وحُسن المراقبة ودوام الاستغفار الصحيح وصدق الاستعانة بربِّه، حتى لا يَكِلَه إلى نفسِه ويدَعَه حيرانَ يتخبَّط في ضلال حيْرته، ويدور في حلقات مُفرغة مِن التجارب المُخفِقة المُضيِّعة لوقتِه وطاقاته.

◇ هذا الربُّ الجليلُ العظيمُ المُتفضِّلُ الكريمُ هو الذي يستحقُّ أحسنَ المعاملةِ مِن طاعةِ أوامره عن رغبةٍ ومحبَّة، واجتناب نواهيه عن خوفٍ وحذر، وتنفيذ تشريعاته، وإقامة حدوده، عن تشرُّفٍ وتَطَيِّب، معتقدًا أحقِّيتها، ونجاح علاجها للمشكلات دون ما سواها أبدًا، مُقتصِرًا على طلب الهداية وسائر أنواع التثقيف مِن وحيه الكريم، كتابًا وسُنَّة، ويكون مُراقبًا لله في سائر حركاته وتدبير شئونه، وبذلك يكون عابدًا لله حقًّا، ويهديه الله للصدق باستعانته به في كلِّ شيء.

◇ إن بصدقِ الضَّراعة إلى الله بهذه الآية قولًا وعملًا وقصدًا، ينال الإنسان أهليته مِن كرامة الله في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ الله خلقَه ليُكرِمَه ويُسَوِّدَه في الأرض، فإذا عصى اللهَ وطاوع الشيطان -أيُّ

شيطانٍ مُبتعد عن وحي الله وأمره- فقد سعى في إهانةِ نفسِه بدَلَ كرامتها، وفي رقِّها لكلِّ شيطان بدلًا مِن تحريرها لله وحدَه، وفي تأخير منزلتها وجعلها ذنبًا للغير، بدلًا مِن رفعتها وسؤدَدِها.

تكرار الضَّراعة الصادقة مع الله بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يجعل المؤمن صلب العود، صاحب قُوِّةٍ وجَلد، لا يميل مع كلِّ ريح، ولا يضعف أو يلين أمام أي قوَّة، ولا ينحني مع أي خلة ولا يندهش أمام أي مفاجأة، أو يحزن عند أي مصيبة؛ لتوجهه إلى الله بكُلِّيتِه، واعتمادِه عليه في كلِّ نائبة، واحتسابه العوض منه عن كلِّ شيء، فحبيبُه الأوحد هو الله، وهو ذخيرتُه وملجؤه، وهو هدفُه وغايتُه، وبذلك تكون شجاعته كاملة، وبطولته خالدة، وأخلاقه فاضلة، وصبره معينًا لا ينفذ، بخلاف ما عداه مِن أهل الهوايات الماديَّة، والغوايات النفسيَّة، فإنَّهم وإن كان في بعضهم شجاعةٍ وصبرٍ واستخفافٍ بالنوائب، فإنَّهم لا بُدَّ أن تنال منهم الأحداثُ مأرِبَها ويلويهم خصمُهم على ما يريد في أدنى ما يُصابون به مِن كوارث.

◇ العابدُ لله يتخذ الله هاديًا ونصيرًا وحاكمًا ووليًّا، فلا يطلب الهداية مِن غير وحي الله، بل يعتبر جميع الأوضاع التي لم تركز على وحيه بدعةً وفِريةً، وأملًا وتشكيكًا مِن وحي شياطين الإنس

والجن وطواغيتهم، فلا يطلب النُّصرةَ إلا مِن الله، ويجتهد في الاستعداد وتسخير القوى مُعتمدًا على الله، ولا يبتغي غيرَه حكمًا، ولا يرجو مِن سواه نصرًا ولا يسمح بفراغ، أو يُضيِّع لحظةً دون عملٍ لنصرةِ ربِّ العالمين.

◇ تحقيق عبادة الله هو المقوِّمُ الأعلى لحياةِ الإنسان، وبقدر قيامه بها يُقاس صعودُه أو هبوطُه، وسعادتُه لا تتحقَّق دون تحقُّقِها، ودون عبادة الله الصحيحة ينحدُر في صفاته الإنسانيَّة، وفي تصوراته للقيم الإنسانية؛ لأنه يكون عبدًا للماديات، وعبدًا للشهوات، وعبدًا للآلة، أو تابعًا ذليلًا مِن توابعها، فينحطُّ في تصوُّرِه وأخلاقِه، ويهبِطُ في عَلاقَاتِه الجنسيَّة إلى أحطِّ مِن حالة البهيميَّة، وتراه لا يعرف سوى صَخَب الأسواق ودخان المصانع، وأزيز الماكينات.

◇ صدق الاستعانة بالله يورث طمأنينةَ القلب، وسكونَ النفس؛ لأن ذلك مِن آثار صدق الإيمان وقوَّتِه، وإذا اطمأنَّ قلبُ الإنسان وسكنتْ نفسُه؛ حصل له بَرْدَ الراحة، وحلاوةَ اليقين، وسَلِمَ قلبُه ممَّا ينتاب قلب غيره مِن الخطرات الفاسدة، أو المُفزِعة أو المُخذِلة، فكان يستقبل الأهوال بشجاعة وثبات، لا يبالي بالخطوب إذا اعتدت، ولا يلويه شيطانُ الهوى والشهوات عن الإقدام على الأهوال، أو الثبات أمام الخطوب، لاستمداده العون

مِـن ربِّـه الذي صـدق معه فـي ضراعته باسـتعانته، فهو يرى نفسـه موصولًا مِن الله بالمدد الروحي والمعنوي، ويؤمن بأن الله يفتح له كل مُغلَق، فلا يعتريه اليأس، أو يتسرَّب إليه الجزع، ولا يصيبه شيء مِن الضعف أو الحيرة؛ لأنَّه في كَنَفِ الله وعزَّته ونورِه.

◇ وكلُّ مَن صدقَ هذه الضراعة بفعلِه وحُسـنِ قصدِه، حصل مِن الله على المعيَّة والنُّصرة والتوفيق، أمَّا مَن كان نُطقُه بها وتكريرُه لها عـادةً تقليديَّة موروثة، كحالِ أكثر النَّـاس اليوم فحظُّه منها على حسـب تطفيفـه مع اللـه، بعـدم الغيرة لدينـه، والغضـب لحرماته، وعدم الدفع برسـالته، والجهاد والإنفاق في سـبيله، وعدم مساندة المسـلمين وحبهم، وبغض الكافرين وحربهم، فمِن هذه المواقف السـلبيَّة تترتَّب فوائـد الآية، وثمرة نتائجها، وفـي الأثر: (كما تدين تـدان). أمـا بحصـول ما ذكرنـاه مِن صـدق المُبتهِل بهـا عمليًا فإنَّه يتحفَّز للقيام بواجب الله، وحمل رسـالته، وتنفيذ وصاياه، والعمل على إعلاء كلمته بالحُكم بشريعته.

◇ تعليـم اللـه للمؤمنيـن هـذه الضراعـة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ بصيغـة الجمع، وكون الفرد منهـم مُلزَمًا بهذه الصيغة، فيه إعلامٌ مِن اللهِ مؤكدٌ بالتذكير بأن هذا الدِّين الإسـلامي الحنيف هو الرابطة الوحيدة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم

وتباعد أقطارهم وبلادهم، فهو الذي يجعل جميع الأمم الإسلامية كمجتمعٍ واحدٍ وأسرةٍ واحدة؛ حتى يُصبِحوا بهذه القوَّة المُتكتِّلة كالجسدِ الواحد.

◇ الصادق بضراعتِه إلى الله بـ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يعتني غايةَ الاعتناء بسلامة قلبه، وذلك:

① بتصفيتِه ممَّا يرِدُ عليه مِن الهمسَاتِ والخواطرِ التي تفتنُه بشُبهةٍ أو تشغلُه بشهوة.

② وتصفيتُه ممَّا يُقذفَ عليه مِن الآراء والنظريات العَفِنة.

③ ومِن فساد المقاصد وهي ما يكون لغير الله مِن كلِّ غرضٍ وشهوة.

④ وتصفيته مِن مُثبطاتِ الهمم.

⑤ ومِن التعلُّقِ بغير الله أو إيثار شيءٍ على مُرادِه سبحانه، ولو أقرب قريب أو أنفس نفيس في الدُّنيا.

⑥ وتصفيته مِن استعذابِ شيءٍ فوق استعذابِ عبادة الله بأيِّ أنواعها، أو عُذوبة كلامه وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

⑦ ومِن التعلُّقِ بجمالِ شيءٍ يُنسِيه جمالَ اللهِ ولذَّةَ قُربِه، بل

إذا أعجبه جمالَ شيءٍ ذكرَ جمالَ اللهِ الذي جميعُ ما في الأكوان مِن جمالٍ؛ فهو أثرٌ مِن آثارِ جماله، وكُلما استمتع بمحبوبٍ أو استلذَّ بشهوةٍ؛ زادت محبتُه لله الذي وهبها، وزاد تعلُّق قلبه بعبادتِه وحُسن مراقبته.

⑧ وتصفيته مِن إجلالِ غير الله، والخوفِ مِن غير الله أو رجائه، أو قصر محبته عليه أو تفضيلها على حبِّه.

فجاءت ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليُعلِنَ العبدُ بذلك أنَّه فقيرٌ عاجزٌ أن يقودَ نفسَه إلى ربِّه فيستعينُ به سبحانه على عبادتِه أن يوفقَه لامتثالِ أمره ويحفظَه مِن اقترافِ نهيه.

هذه الآية العظيمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يطلبُ بها العبدُ رضا الله عَزَّوَجَلَّ لذلك ينبغي أن يكون العبد على معرفة بحقيقة هذه الآية ومفهوم تلك العبودية، هذه العبادة كما عرَّفَها ابنُ تيميَّة «هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأعمالِ والأقوالِ والأفعالِ الظاهرةِ والباطنةِ».

وهذه الأعمال تكون مع غاية الحبِّ والذُّلِّ والتعظيم فتعبُد اللهَ حبًّا وتعظيمًا له وذُلًّا إليه وهي في الظاهر إذعانُ العبد وقبوله وعدم عصيانه واعتراضه لكل ما أمرَه به ربُّه أو نهاه عنه ويشترك معها

عبوديَّة القلـب وهُما لا يجتمعان إلَّا للمؤمن وهي اعترافُ المؤمن بعُلُو شـأن ربِّه وامتلاء القلب بعواطف الشـكر والامتنان على نِعَمِهِ وآلائه فتكون العبوديَّة قلبًا وقالبًا.

واعلم أيُّها الحبيب -جعلنا الله وإيَّاك مِن عبيده وحده- أنَّ مَن لـم يصرف ذلك لله صرفه لغيره ولا بُدَّ، فإنَّ الإنسـانَ خُلِقَ بطبيعتِه عبـدًا وبقـدر تخلِّيك عـن عبادةِ ربِّك تكـون عبادتُك لغيـره، فاختر لنفسِك مَن تعبُد؟!

يقول شـيخ الإسـلام ابن تيمية: «وكمالُ المخلوق في تحقيقِه عبوديَّتَه لله، فكُلمـا ازدادَ العبدُ تحقيقًا للعبوديَّة ازداد كمالُه وعَلتْ درجتُـه»، ويقول أيضًا: ولا بُدَّ لكلِّ عبدٍ مِن مُراد محبوب هو منتهى حبُّـه وإرادتُـه، فمَن لـم يكن الله معبـوده ومنتهى حبُّـه وإرادتُه؛ بل استكبر عن ذلك فلا بُدَّ له مِن مُراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المُراد المحبوب؛ إمَّا المال وإما الجاه وإما الصور»[1].

فالـذي يصرف العبادةَ لله وحدَه هو الذى يطمئنَّ قلبُه ويتوحَّدَ مقصودُه لأنَّه يعبُدُ إلهًا واحدًا.

أمَّـا الذي لا يوحِّد اللهَ بالعبادةِ فسـوف يعبُدُ غيـرَ اللهِ وتتفرَّق

---

(١) رسالة العبودية لابن تيمية.

به السُّبُل، يقول صاحب الظلال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي كُليَّة تُعلنُ ميلاد التحرُّرِ البشريِّ الكامل، التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ الأوهام؛ التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ النظام؛ التحرُّرُ مِن عبوديَّةِ الأوضاع، لأنَّ الله وحدَه هو المعبود وهو وحده المُستعان».

وقد ذكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه العبادة بعدما ذكرَ مِن صفاتِه ما يدل على الحبِّ وعلى الخوف وعلى الرجاء؛ لأنه لا بُدَّ للعبد مِن ذلك في عبادته فمَن عَبَدَ اللهَ بالرجاء فقط فهو مُرجئٌ[١]، ومَن عَبَدَ اللهَ بالخوف فقط فهو حَرُوريٌّ[٢] ومَن عَبَدَ اللهَ بالحُبِّ فقط فهو زنديقٌ[٣] ومَن عَبَدَ اللهَ بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ فهو مؤمنٌ مُوحِّدٌ جعلنا الله وإيَّاكم مِن المؤمنين الموحدين[٤].

وإذا علِمتَ ذلك أخي القارئ فاعلم أنَّ في هذه الآية مِن محَاسِنِ البيَانِ وحُسنِ الصيَاغَةِ الشيء الكثير ومِن ذلك:

---

(١) مِن الإرجاء: وهو التأخير والإمهال، وهم فرقة تعتقد بأن الإيمان قول بلا عمل، أي إخراج الأعمال مِن مُسمَّى الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

(٢) فرقة الخوارج، نسبة إلى المكان الذي خرجوا فيه على سيدنا عليّ، يقال له: «حرُورَاء» فسموا بذلك.

(٣) مَن يُبطن الكفرَ ويُظهر الإيمانَ.

(٤) رسالة العبودية لابن تيمية بتصرف يسير.

أولًا: تقديم المفعول إياك على فعله «نعبد ونستعين» وفائدة هذا التقديم الحصر، فلو كان سياق الآية (نعبدك ونستعينك) لم يمنع ذلك أن يُعبدَ مع الله غيره وأن يستعين معه بسواه، ولكنه لما قدَّم المفعول أفاد الحصر في ذلك ومعناه: لا نعبدُ إلَّا أنت ولا نستعينُ إلَّا بك.

ثانيًا: الالتفات مِن الغيبة إلى الخطاب لتحريك الذهن وإثارة الانتباه وهذا الالتفات مِن الغيبية إلى الحضور يُشير إلى قرب العبد مِن ربه وحضوره بين يديه.

ثالثًا: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب مَلِكِ الملوك فكأنَّه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مُناجاتِك بمفردي، بل أنضم إلى سلكِ المؤمنين الموحِّدين فتقبَّل دُعائي في زُمرتهم فنحن جميعًا نعبدُك ونستعينُ بك[1].

إذا كانت سورةُ الفاتحة هي أم القرآن المجيد وخلاصته وروحه! -كما تبين بأدلته من قبل- فإنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) مُستفاد من صفوة التفاسير للصابوني.

﴿نَسْتَعِينُ﴾ بما تَفَجَّرَ مِن أنوارها وانكشف مِن أسرارها - هي خُلاصة الخُلاصة! وروح الروح! إنها منطلق الدين، وإنها غاية الدين، وإنها مَدَارُ الدين، وإنها المنهاج العملي الجامع لكل الدين، فلا شيء يبقى خارج فَلَكِهَا مِن الدين! إنَّها هي «الكَلِمَاتُ» التي ابتلى بها اللهُ هذه الأمة، كما ابتلى إبراهيمَ مِنْ قَبْلُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، ولذلك فالنَّاسُ إزَاءها بين وَفِيٍّ وظَالِمٍ! فمَن أوفى بها أوفى بعهد الدين، ومَن خانها خان عهد الدين! وكان بذلك مِن الظالمين!

وأما تمامُها فهو مقام الغِنَى العالي، فمَن تحقق بها خُلُقًا غَنِيَ بالله؛ فكانت له أسماؤه الحسنى جمالًا يَتَلَقَّى أنوارَها عطاءً مِن الله لا ينفد أبدًا! منذ أن يضع قدمَه على صراط الله المستقيم -سيرًا إليه تعالى عبر مدارج الابتلاء التعبُّدي- حتى يلقى رحمةَ ربِّهِ وجمالَ رضاه! فما خاب قطُّ عبدٌ أخلص لله، ولا خَسِرَ مؤمنٌ استعان به وحده جلَّ في عُلاهُ![1].

(١) مُستفاد من محاضرات د.فريد الأنصاري.